الأسواق والتجارة الدمشقية في عصر المماليك

نقولا زيادة

الجامعة الأمريكية - بيروت

كانت مصر وبلاد الشام في أيام المماليك الطريق الرئيسي لنقل المتاجر الشرقية - من جاوه والهند والصين وسواها - إلى أوربة، وكانت القاهرة أكبر أسواق المنطقة كما كانت الإسكندرية نقطة خروج السلع الشرقية إلى أوربة، أما في بلاد الشام فقد كانت حلب ودمشق السوقين الرئيسيتين في الداخل وكانت بيروت أكبر منفذ نحو أوربة.

على أنه يجدر بنا أن نتذكر أن أوربة كان عندها في تلك الفترة ماتصدره إلى الشرق، وخاصة في عالم المنسوجات، ذلك أن أوربة أخذت نفسها بصنع المنسوجات على نطاق واسع وبأسلوب جيد منذ القرن الثالث عشر، وكان إلى جانب القماش الزجاج والأسلحة التي تحمل إلى المشرق.

ولن نتناول هنا هذه الأسواق بأجمعها، بل سنكتفي بالحديث عن دمشق وأسواقها، فقد كانت دمشق تحتوي أسواقها على مصنوعاتها المحلية التي كانت مطمع الكثيرين من زوارها والتجار الذين يهبطونها، ومن هذه الأشياء من منتوجات دمشق السكر والمنسوجات القطنية والحريرية والزجاج والخزف والكاغد (الورق) والصابون وماء الورد والشموع.

وقد زار دمشق عدد من الغربيين في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بينهم جورجو غوشي ونيكولو بوغيبونصي وفرسكو بالدي وسيمون سيولي وفان سوخم، وزارها في القرن الخامس عشر برتراندون دولابروكييه وفابري. أما لدفيكو دي فارتيما فقد جاءها سنة ١٥٠٢م.

وقد جمعنا روايات هؤلاء لنخرج منها بصورة عامة لتجارة دمشق في أيام المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧م).

يبدو من ملاحظات هؤلاء الرحالين أن العمل التجاري النشيط انتقل من داخل المدينة إلى ميدان تحت القلعة خارج المدينة، أما مجمل ملاحظاتهم العامة فهي:

أولاً: أن ما يصنع في دمشق، كبيراً كان أم صغيراً، هو أكثر مما يصنع في أي مكان آخر: سواء في ذلك الأقمشة الحريرية والقطنية والكتانية والذهب والفضة والنحاس والزجاج.

ثانياً: إن متاجر دمشق لا يصدق الخبر عنها إلا من رآها بنفسه فانت لو سرت في المدينة متفرجاً لرأيت فيها الأقمشة الحريرية الآتية من الصين، والبروكار المتعدد الأصناف، والأباريق النحاسية المزخرفة.

ثالثاً: تحوي أسواق دمشق من الحجارة الكريمة والجواهر والأفاوية التي تأتي من الهند. وقد قال المسيحيون العارفون بهذه الأمور بان ما في دمشق من الأفاوية يكفي حاجات العالم المسيحي لمدة سنة.

رابعاً: إن سيوف دمشق هي أنبل وأجمل ما يصنع في المنطقة ويصنع في دمشق مرايا من المعدن التي تضخم الأشياء، وبعضها إذا وجهت نحو الشمس عكست من الحرارة ما يكفي لحرق لوح من الخشب على بعد ١٥ قدماً (نحو ٤,٥٠ متراً).

خامساً: يقدر عدد سكان دمشق بنحو مئة ألف نسمة، وهي بعد القاهرة أهم مدن السلطان.

سادساً: إن الجزء المحاط بالأسوار من دمشق تبلغ مساحته ثلاثة أضعاف مساحة فلورنسة.[١]



بعد هذا العرض العام أود أن أتوقف عند بعض هؤلاء الرحالين لأنقل إلى القراء كلماتهم (مترجمة) عن دمشق، يقول فون سوخم: «دمشق [مدينة] عظيمة وفخمة وجميلة وغنية بكل أنواع المتاجر، وفي كل ناحية منها شيء مبهج ... فالطعام فيها كثير وكذلك التوابل والحجارة الكريمة والحرير واللآلئ والأقمشة المقصبة والطيوب من الهند وبلاد التتار ومصر وسورية والبلاد الواقعة إلى جهتنا [أي نحو أوربة] من البحر المتوسط ... وهي كثيرة السكان إلى حد لا يصدق ... وتقوم صناعاتها المختلفة كل في حي خاص بها. وكل صانع يجعل أمام بيته مكاناً يعرض فيه مصنوعاته. وكذلك يفعل التجار بسلعهم»[٢].

ولنقابل هذا بما جاء عند ابن بطوطة في وصفه لدمشق قال: «وعن يسار الخارج منه [الجامع الأموي] سماط الصفارين وهي سوق عظيمة ممتدة مع جدار المسجد القبلي من أحسن أسواق دمشق. وقد قامت عليها شوارع مستديرة فيها دكاكين البزازين وغيرهم وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصناع أواني الزجاج العجيبة. وفي الرحبة المتصلة بها دكاكين كبار الشهود منها دكان للشافعية وسائر أصحاب المذاهب، يكون في الدكان الخمسة والستة من العدول والعاقد للأنكحة من قبل القاضي ... وبمقربة من هذه الدكاكين سوق الوراقين يبيعون الكاغد (الورق) والأقلام والمداد»[٣].

بروكييه كان من أهل الخامس عشر وقد قال عن دمشق: «قبل أن ندخل دمشق ترجلنا عن خيولنا حسب إشارة المكاري، وهذه هي العادة المتبعة في هذه البلاد إذ لا يجوز لمسيحي أوروبي أن يدخل مدينة راكباً ... تحوي دمشق على ما بلغني مئة ألف نسمة وهي غنية ومركز كبير للإتجار، وأهم مدينة في السلطنة [المماليك] بعد القاهرة ... وحاكمها نائب عن السلطان رأساً.

«يتحتم على تجار الأوروبيين أن يلجأوا إلى بيوتهم في المساء فيقفل عليهم الأبواب إناس معينون لهذا الأمر، ولا يفتحونها إلا في صباح اليوم التالي، وقد لقيت في دمشق كثيرين من الجنوبيين والبنادقة وأهل كالابريا وفلورنسة ومن تجار فرنسة. وقد جاءوا إلى دمشق ليبتاعوا أشياء متعددة وخاصة التوابل بقصد نقلها إلى بلادهم بطريق بيروت، ودمشق مدينة صناعية، فسيوفها من خير ما يصنع وأجمله، وصقلها جيد بحيث أن المرء يستطيع أن يستعملها مرآة لإصلاح زينته. ولم أر في حياتي سيوفاً تقطع مثل السيوف الدمشقية»[٤].

وقال بروكييه عن بيروت، ميناء دمشق الأول: «ميناء بيروت جيد صالح للتجارة. لقيت في بيروت تاجراً بندقياً اسمه جال برفيزين الذي نصحني بالسفر إلى دمشق حيث ألتقي من التجار والقناصل الأوروبيين الكثيرين وهم يرشدونني إلى خير الطرق للعودة براً إلى أوروبة.

«نزلت أثناء إقامتي في بيروت في دار تاجر بندقي هو پول بربريكو، وقد دبر لي مكاناً يحملني إلى الناصرة ويعيدني إلى دمشق ويعود إلى بول بوثيقة من تعرفه جملة أخباري وسلامتي»(٥).

المراجع

(١) ملخص من نقولا زيادة ـ دمشق في أيام المماليك (بيروت، ١٩٦٦)

نقولا زيادة ـ رواد الشرق العربي في العصور الوسطى (بيروت، ط٢, ١٩٨٦)

Nicola A. Ziadeh Urban life in Syria under the early mamluks (Beirut, 1953)

(٢) رواد الشرق العربي ص ٢١٣ ـ ٢١٤.

(٣) المكان نفسه ص٢١٨ ـ ٢١٩.

(٤) المكان نفسه ص٢٢٧ ـ ٢٢٨.

(٥) المكان نفسه ص٢٢٥.